_ الصبـــر _

يقـول أفلوطين في تاسوعياته أن كل موجـود إزدوج بضدّه والتـزم به فأصبح ضدّه منه بمنزلة اللزوميات. إلا الله عـزّ وجـلّ فهو واحـد أحـد متفرّد بذاته لا ضدّ له ولا شريك ولا ممثـول.

ثم يستطرد فيقـول أن النفس الإنسانية ازدوجت بالجسد فتضاددت معه فـي المطالب والغايات. فغاية النفس السموّ إلى الأعلى باتجاه الأنوار الشعشعانية حيث الموجودات معان كليّـة مجردة ومثل كاملة لا يعتورها النقص مـن أمامها أو مـن ورائها وخالـدة لا يمسها الفنـاء لأنها بسيطة لا تركيب فيها ولا انحـلال. وغاية الجسد الإنجذاب إلى الملذات الحسيّة المركبة، كلـذّة المأكل والمشرب والنكاح والنوم والإسترخاء. وتقول آداب التوحيد أن بين النفس والجسد وحدة وصراع أضداد. فلا النفس قادرة أن تغادر الجسد لأنــها لا تستطيع ان تكتسب علومـها وأعمـالها إلا مــن خلال جوارحــه، ولا الجسد قادر أن يقوم بذاته مستغن عن النفس. فهما متلازمان متضادّان. تحاول النفس أن تطبّع جوارح الجسد بطبائعها النورانية حيث الحرارة هـي الإقبال على طاعة الله لا حرارة الإقبال علـى الملذات الجنسية، وحيث البـرودة هــي بـرودة الإستقـرار في اليقين والطمانينة المعرفيــة، لا بــرودة الإسترخاء والكسل والدّعــة،وحيث اليبوســة هــي قـوة نور العقل في اكتناه المعرفة وتثبيتها في جوهر النفس، لا قوة ظلمة الجسد وكثافتــه وانجذابــه إلـى كل كثيف مظلم، وحيث الرطوبـة هي التواضع أمام الحقيقة وليونة الإقرار، لا رطوبــة الشهوات والغرائــز البهيميــة.

ولذا اعتبــر الصبر مــن أهم الفضائــل كما قــال الإمام علي بن أبــي طالب: "عليكم بالصبر فإن الصبر من الإيمان كالرأس مـن الجسد " ولا خير في جسد لا رأس معه ولا في إيمان لا صبر معه. لقد أدرك الإمام علــي أنه مع قلـة الصبر تنتصر نزوات الجسد على قيم النفس ومثلها العليا فينسفل الإنسان ويرتدّ إلى مرتبة البهيمية. فحلاوة قدرة النفس علـى جذب الجسد إلــى الأعلى حيث الملذات مــروءة وشهامـة وشجاعة وكـرم ومعرفة وعرفـان.هي التي تمحو المرارة التي سببها الصبر الطويل والمعانـاة

القاسية.وقال النبيّ الكريم في الصبر:" المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم." لقد أدرك النبيّ الكريم أن الإنسان اجتماعي بالفطرة لا يستطيع أن يـرى نجاحـه أو فشله، سعادتـه أو تعاستـه، قوتــه أو ضعفه، إلاّ على مرايا الصبر الحقيقي. لا الهرب من المجتمع إلى الإنعزال والتقوقع والإنطـواء.

قــال تعالــى فـي كتابــه العزيــز:" والعصر.إنّ الإنسان لفـي خسر إلاّ الذيــن عملوا الصالحات وتواصلوا بالحــقّ وتواصلوا بالصبــر ".

تقــول آداب التوحيـد أن الإنسان لكي يحفظ نفسه ويصونها ويحقق الغايــة التــي من أجلها وجدت ،يجب أن تكون الحقيقة مطلبه ومبتغـاه وأن تتجسد هذه الحقيقــة عمــلا صالحا على أرض المجتمع.وصبرا على أذى الناس وسلبياتهم فالمؤمن يقابل السلبية بإيجابية، والكراهية بالمحبة، والجبن بالشجاعة والظلم بالعدالة.

وورد أيضا فــي الكتاب العزيــز "ولنبلونّـكم بشيء مـن الخوف والجـوع ونقص في الأموال والأنفس والثمـرات. وبشّـر الصابريـن الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعــون ".

نستخلص مــن ذلك أن الإنسان يمتحـن بالمصائب كما يمتحـن الذهب بالنار فإذا كان ذهبا خالصا ازداد توهّجـا واصفـرارا وإلا اسودّ واربــدّ ،وكذلك الإنسان المؤمـن اذا رمي بمصيبة ليست وليـدة الصدفة ولكنها ثمرة سوء عمل وغفلة وشكوك إن لم يكن في حياته الحاضرة ففي الحيوات السالفة " وإن لكل امريء ما سعى ".

واذا علمنا أن الأضداد تولــد من أحشاء بعضها، علمنا أن اللـذة تولد من أحشاء الألم والسعادة مـن أحشاء التعاسة وعلمنا أن الصابرين لهم حسن المآب وخيــر الخاتمة.

قــال تعالــى: "وإن تصبــروا وتتقــوا فـإن ذلك مـن عـزم الأمــور ." وقــال أيضا: "سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبـى الدار ".

أمـا الشاعــر الزهاوي فقــال:

تمسّــك بحبــل الصبر فــي كل كربــة فلا عســر إلاّ سوف يعقبــه يســر

والصبر يشبه الشجـرة التي جذورها مـرّة ولكن ثمارها حلــوة المذاق.وعنـدما سئــل أحـد المشايخ الزهّـاد كيف ينــام على حصير ويستريح، أجــاب: " من يتجاهل قسوة سريره ينم هنيئـا ومريئا". ثم أردف قائـلا: "ليس الشقاء أن تكون محروما من متاع الحياة الدنيا بــل الشقــاء أن تكون عاجزا عــن احتمــال ذلك الحرمــان". فالشيء اذا استغنيت عنه كان كلا شيء.

ولقد أظهرت الآداب التوحيديــة أن النفس العاقلة اذا استطاعت أن تجذب الجسد إليها وتعقله بطبائعها النورانيـة تماهت ملذات الجسد مع ملذاتــها وسعادته مع سعادتها.
ولما كانت سعادة النفس هــي فــي ادراك المعلومات الإلهية والفضائل البرهانية وفي معرفة وجــود الناسوت التي توصلها الــى العلم بتنزيــه اللاهوت، تماهــى الجسد مع النفس في ذلك فتعفف حتى اصبحت العفّـة طبعا من طبائعه وتشفف حتى غدا كقالب مــن النــور البسيط المجمّد وليس من الصلصال المركب الكثيف.

عندهــا يصبح الإنسان الموحّــد بمنزلــة الملاك لأن عقله النوراني استطاع أن يمتلك غرائــز جسده الشحماني.وهــذا أقصى مراتب تحقيــق الإنسان لإنسانيته وتماهيه مع العقــل الكلي سيّد هذا الوجــود ومدبّــر شؤونــه بالتأييــد الإلهــي الذي لا ينقطع عنه طرفــة عيــن.

كمال يوسف سري الدين